–المحاضرتين الخامسة والسادسة (تاريخ العراق القديم) المرحلة الاولى –قسم الاثار

مملكة اور الثالثة: 2112 – 2004ق. م.

– النهضة السومرية:

في اثناء حكم الكوتيين لبلاد الرافدين والذي استمر لأكثر من قرن من الزمان (2250–2120ق. م) ، ظهر في جنوب العراق عدد من الكيانات المستقلة في المدن التي تقع في جنوب غرب السهل الرسوبي، ذلك أن الكوتيين قد ركزوا سيطرتهم على العاصمة أكد وما حولها، تاركين المدن البعيدة عن العاصمة فيما يشبة نظام الحكم الذاتي، مما ساعد في ظهور عدد من السلالات الحاكمة التي نأت بنفسها عن السيطرة الكوتية، والتي أخذت على عاتقها تحرير ارض العراق من السيطرة الكوتية فيما بعد. ومن أبرز تلك السلالات سلالة لكش الثانية (2200–2100ق. م)، وسلالة الوركاء الخامسة، وقد عاصرت كل واحدة منهما الأخرى، إنطلقت شرارة الثورة ضد الاحتلال الكوتي من مدينة الوركاء على زمن حاكمها اوتوحيكال، الذي اعترفت اغلب المدن السومرية بزعامته لها وساندته من أجل تحرير بلاد الرافدين من الكوتيين الغزاة، وقد تمكن اوتوحيكال من ايقاع الهزيمة بالجيش الكوتي في معركة فاصلة، لتنتقل الملكية في بلاد سومر وأكد الى مدينة الوركاء. وقد خلد العراقيون هذا الانتصار بنص تاريخي جاء في نصه، " إنليل، ملك كل البلاد، قد عهد الى اوتوحيكال الرجل القوي ملك الوركاء، ملك الجهات الأربعة، الملك الذي لا يستطيع أحد أن يخالفه، بأن يحطم إسم الكوتيين... جلس اوتوحيكال وتريكان (الملك الكوتي) مضطجع عند قدميه، فوضع (اوتوحيكال) قدميه على رقبته (اي رقبة تريكان)، وأعاد سيادة سومر الى يديه".

وبعد ان حكم اوتوحيكال في مدينة الوركاء كملك لمدة سبع سنوات، إنتقلت الملوكية الى مدينة اور علي يد أورنمو أحد ابرز القادة الذين قاتلوا مع اوتوحيكال ضد الكوتيين، ولم تعرف على وجة الدقة الظروف التي رافقت ذلك، كما أن مصير الملك اوتوحيكال بعد ذلك كان مجهولاً. وعلى أية حال فأن هذا الانتقال بطبيعة الحال لم يكن سلمياً، إذ تشير جداول إثبات الملوك السومرية الى أن الوركاء قد ضربت بالسلاح وأنتقلت الملوكية الى مدينة اور.

وما أن تمكن اورنمو من السيطره على مدينة الوركاء حتى توجه نحو مدينة لكش، التي سرعان ما اعترفت بسلطانه عليها، ليبدأ سلسلة من المعارك التي استطاع بواسطتها من بسط سيطرته على جميع مدن جنوب بلاد الرافدين، فقد عثر على كتابات لأورنمو الذي اعلن نفسه ملكاً في كافة مدن وسط وجنوب بلاد الرافدين. ولم تقتصر سيطرة الملك اورنمو على حدود بلاد الرافدين، بل تمكن من فرض سيطرته على بلاد عيلام، بعد ان اعترفت العاصمة العيلامية سوسة بتبعيتها للملك اورنمو. الذي كرس سنوات حكمة الاولى من أجل تعزيز واستكمال وحدة البلاد، التي كانت قد تفرقت إبان مدة حكم الكوتيين الغزاة، عندما نراه قد سير حملاتة العسكرية نحو بلاد آشور في الشمال، وبلاد عيلام في الشرق، ووادي الباليخ والخابور في اعالي نهر الفرات، فضلاً عن منطقة الخليج العربي، حيث تفاخر الملك اورنمو بأنة جعل الطريق مفتوحة من الاقطار العليا الى الاقطار السفلى.

مما يؤشر حدود دولة الملك اورنمو وجهوده في اعادة الامن وحفظ النظام وتطهير البلاد التي ملأت بالمتمردين و اللصوص وقطاع الطرق فيما مضى.

وبعد أن اضحت الاوضاع السياسية للبلاد في صالح الملك اورنمو توجه نحو اعادة اعمار البلاد، التي لابد وإن الحرب قد أنهكتها لتبرز شخصية الملك كرجل معمار، فضلاً عن كونة قائداً ورجل دوله من الطراز الاول، حيث قام الملك اورنمو ببناء واعادة ترميم العديد من المعابد في المدن العراقية، في العاصمة اور، والوركاء، ونفر، وباقي مدن العراق القديم خصوصاً الجنوبية منها، ومن ابرز اعمال البناء التي قام بها إعادة بناء زقورة نفر وزقورة اور تمجيداً للاله (ننا Nanna) اله القمر واله مدينة اور.

كما وجه جهوده من أجل النهوض بالزراعة التي كانت غالباً ما تلحقها أضرار بالغة في فترات الاضطراب السياسي، مما ينعكس على إزدهارها بشكل سلبي، مما حدى بالملك اورنمو اتخاذ كافة الإجراءات التي من شأنها إنعاش الزراعة، عماد الاقتصاد في ذلك الوقت. فقد تفاخر الملك اورنمو بأنجازه للعديد من قنوات الري والانهار . فضلاً عن شق الجداول والحفاظ على مواعيد كري الانهار وتنظيفها، من أجل ضمان استمرار تدفق المياه الى الحقول المزروعة، ومحاولته إضافة مساحات جديدة من الاراضي الصالحة للزراعة، والتي تساهم في زيادة واردات المملكة. أما في مجال تشجيع حركة التجارة الركيزة الثانية من ركائز الاقتصاد، فقد إستأنف

الملك اورنمو علاقاته التجارية مع جميع المراكز التي كانت لها صلات مع بلاد الرافدين، سواء كان ذلك مع الأناضول، او بلاد الشام أو الخليج العربي. وقد اتخذ العديد من الخطوات الهامة والتي تصب في هذا الاتجاه، حيث أقيمت نقاط للحراسة على طرق القوافل التجارية لضمان أمن وسلامة تلك القوافل، مما نتج عنه التخفيف من تكاليف نقل البضائع، والتي كان يدفع جزء كبير منها للرجال المسلحين الذين كانوا يرافقون القوافل المتنقلة من أجل توفير الحماية لها. فكان أن تدفقت مختلف انواع البضائع الى اسواق مدينة اور من كل اتجاه، فمن بلاد الشام كان يأتي النبيذ، واللازورد واللؤلؤ من دلمون (البحرين)، وأنواع بارزة من الاحجار الكريمة والتي كانت تستخدم في صناعة الحلي تأتي من الهند وافغانستان. وقد توج الملك اورنمو عصره بأصداره لقانونه الشهير الذي عرف بأسمه، والذي يعد أقدم قانون مكتشف حتى الآن ليس في العراق فحسب بل في العالم قاطبة.

صور لنا أحد النصوص المسمارية والمعروف برثاء اورنمو الكيفية التي انتهت بها حياة هذا الملك المقدام، والتي تبين أنه مات نتيجة جرح اصابة في احدى معاركه ضد الاعداء، أو أنه قتل في تلك المعركة. ونتجة لوفاة الملك اورنمو فقد تولى العرش من بعده إبنه ووريثة الملك شولكي (2095– 2048ق. م)، الذي حكم مدة سبع وأربعين عاماً حافلة بالعطاء، وتعد مدة حكم الملك شولكي أطول مدة حكم لملك سومري ثابتة لنا على الأطلاق. وقد تميزت مدة حكم الملك شولكي بالأستقرار السياسي في النصف الاول منها، وإن هذا الاستقرار كان من ثمرات عصر الملك اورنمو، فترى الملك شولكي قد انصرف لأعمال البناء، وبخاصة إكمال العمائر التي تركها والده غير مكتمله. وقد أنشأت في زمن الملك شولكي وحدات خاصة لمراقبة وتنظيم المكاييل والمقاييس، وقد ظل العراقيون يعملون بهذا النظام في الادوار التاريخية اللاحقه.

كما إهتم شولكي بربط الاقاليم التابعه له بعضها ببعضها الآخر عن طريق نظام خاص للبريد من الرسل الذين اعدت لهم محطات خاصة لضمان وصول تعليماتة بأسرع وقت، كما عني بتنظيم جمع الضرائب من مختلف الاقاليم، وتدوين كل ذلك في سجلات خاصة اعدت لهذا الغرض.

أما النصف الثاني من مدة حكم الملك شولكي، فقد شهدت إستئنافه لنشاطاته العسكرية، والتي بدأها ببلاد آشور التي اعادها تحت سلطته، كما ان القبائل التي كانت تسكن الاقسام

الشرقية والشمالية الشرقية من العراق قد بدأت بالتحرك ضد الحكومة الملكية في اور، مما دفع بالملك شولكي الى تجريد حملة تأدبية ضد تلك الاقوام، كما أنه شن عدة حملات عسكرية ضد بلاد عيلام، حيث اعاد سيطرته على العاصمة سوسه سنة (2078ق. م). وتجدر الاشارة الى ان الاقوام التي تسكن شرق وشمال شرق بلاد الرافدين ظلت تتحين الفرص للنيل من ثروات العراق وحضارته. وقد تعامل الملك شولكي بدبلوماسية عالية مع تلك الاقوام من أجل ان يكسب ودها ويأمن شرها، والتي كان منها توجيه اهتمامه لعمارة المعابد الخاصة بالهة تلك الاقوام، فقد قام ببناء معبد الألهة العيلامية انشوشيناك في مدينة سوسه عاصمة بلاد عيلام، كما أنه قام بتشجيع المصاهرات السياسية وقيامه بتزويج بعض الاميرات السومريات من الحكام المحليين في مملكته، لكن وقائع الاحداث اثبتت أن تلك الاقوام والتي تسكن الاقسام الشرقية والشمالية الشرقية لايمكن احتوائها إلا بالقوة.

ولقد خلفه على العرش إبنه إمارسين (2047–2039)، ويبدو ان طول المدة التي حكمها والده الملك شولكي قد جعلت من إمارسين رجلاً مسناً عند توليه عرش المملكة، وقد بلغت مدة حكمة تسعة اعوام فقط، تركزت جهوده في كبح جماح الاقوام التي تسكن في الشمال والشمال الشرقي، وقد وصل به الأمر الى ان يحكم تلك المناطق حكماً مباشراً عن طريق أتباعه المخلصين، مما يعكس حجم الخطر الذي كان يهدد المملكة من تلك الاتجاهات. ولم يخلو عصر امارسين من نشاطات بنائية في المدن السومريه وبخاصه اور ونفر وأريدو.

- انهيار مملكة اور الثالثة:

إن الرخاء الذي عاشت في ضلاله بلاد الرافدين زمن حكام ملوك اور الأوائل، اورنمو وشلوكي وإمارسين قد بدأ يتزعزع، خلال تولي الملوك الذين جاؤا من بعدهم العرش المملكة في العاصمة اور. فما أن جلس الملك شوسين على كرسي الملك (2038– 2030ق. م)، حتى واجه تدفق جموع القبائل الامورية القادمة من الجزيرة العربية نحو بلاد الرافدين، بعد ان كانوا يستوطنون اعالي الفرات في بلاد الشام، نتيجة للجدب الذي أصاب مناطق سكناهم حيث لم يتبقى أمامهم غير بلاد الرافدين ملاذاً آمنا لهم. وقد اتخذ الملك شوسين العديد من الإجراءات

التي كان يتوخى منها درء خطر تلك الاقوام والسيطرة على تدفقها، بعد ان باتت تشكل تهديداً حقيقياً للحكم السومري في بلاد الرافدين، فكان أن قام الملك شوسين العديد من الحملات العسكرية التأديبية من أجل إبعادهم عن مدن بلاد الرافدين بعد ان بدأوا يسببون الأذى للمزارع والسكان على حد سواء.

ومن الإجراءات المتخذة في هذا الصدد ايضاً هو قيام الملك شوسين ببنائه سورٍ ضخمٍ على الحدود الغربية لمملكة اور الثالثة أرخ به سنة حكمة الرابعة، وقد وصف لنا أحد النصوص التاريخية التي جاءت من تلك المدة حال تلك القبائل من وجهة نظر سومرية يقول النص:

" المارتو الذين لايعرفون الحبوب،

المارتو الذين لايعرفون البيت ولا المدينة،

أجلاف الجبال... المارتو الذي يستخرج

الكمأ... الذي لايثني ركبتيه، لزراعة الارض،

الذي يأكل اللحم النيء، الذي لايمتلك منزلاً

طول حياته، الذي لايدفن بعد موته ".

ومن الأوصاف الأخرى التي جاءت في ثنايا النصوص:

" كانوا قد هيأوا قمحاً و "كو– نونوز" حبوب كمربى،

ولكن الأموري سيلتهمها حتى دون أن يعرف محتواها ".

مما يعكس لنا النظرة التي كان يرى بها السومري المتحضر، الاموري البدوي، والذي يعطي الأنطباع بأن حالة صراع حقيقية بين البداوة والحضارة كانت ناشئة في ذلك الوقت. ولم يكن التهديد الاموري هو الخطر الوحيد الذي أحاط بمملكة اور الثالثة، فقد واجه الملك شوسين حلفاً معادياً من بعض الحكام المحليين من امراء الاقوام الجبلية القاطنة في شمال شرق البلاد، وقد حاول الملك شوسين إحتواء خطرهم بالأسلوب الذي إتبعه اسلافه من الملوك مع تلك الاقوام، وهو اسلوب عقد المصاهرات السياسية مع اولئك الحكام، وهي السياسة التي دأب ملوك اور

الثالثة على استخدامها من اجل كسب ود الحكام المحليين وخصوصاً الاقوياء منهم. لكن تلك السياسة قد اثبتت الأحداث القادمة عدم جدواها.

تولى ابي سين حفيد الملك شولكي عرش المملكة وهو لم يزل بعد شاباً صغيراً (2029–2004ق م)، في ظل الكثير من الاخطار التي كانت تواجه المملكة من كل حدب وصوب، في الداخل والخارج. وقد كان لحداثة سن الملك وعدم وجود رجل سياسة يقف الى جانبه أثاراً واضحة على الاوضاع السياسة للمملكة، وكان من أول الاخطاء التي ارتكبها الملك أبي سين هو دخوله في مفاوضات مع العيلاميين الذين بدأت تلوح في الافق بوادر العصيان لديهم، وبدلاً من توجيه ضربة حاسمة تقضي عليهم، عقد معهم ابي سين حلفاً ، مما اعطاهم الفرصة ليزدادوا قوة الى قوتهم. وسوف نرى كيف أن هؤلاء الحكام والامراء من العيلاميين والمتحالفين معهم قد نقضوا حلفهم مع الملك ابي سين، في اكثر الأوقات التي كان يحتاج فيها الى دعمهم وولائهم له، من اجل مواجهة الخطر الاموري والفتن الداخلية التي بدأت بوادرها بالظهور. ومع تدفق القبائل الامورية نحو مدن جنوب ووسط بلاد الرافدين والتي بدأت قبل تولي ابي سين للحكم، بدى أنها قد وصلت بعد السنة الرابعة من حكمه الى أنه كان عاجزا تماما عن الوقوف بوجه تلك الهجرات. وربما اعطت تلك الهجرات حافزاً للأقاليم التابعة للتمرد، نتيجة للخلخلة التي احدثتها في تركيبة السكان في تلك الأقاليم، او ربما يكون حكام الأقاليم قد طبقوا سياسة انغلاق تامة في أقاليمهم من أجل مواجهة خطر تلك الهجرات.

وعلى الرغم من أن النظام الاداري الذي اتبع في عهد مملكة اور الثالثة قد قلل من احتمال حدوث ثورات داخلية من خلال السيطرة المباشرة على الحكام، ونزع السلطة التي كانت ممنوحة لهم في قيادة الوحدات العسكرية، واستخدام نظام مراسلي الملك الخاصين بين العاصمة والاقاليم التابعة. إلا إن ذلك كله لم يكن ليمنع الحكام من الاستقلال وجعل مدنهم وأقاليمهم دويلات مستقلة، تلك النزعة المتأصلة في الفكر السياسي في بلاد الرافدين، لذلك فقد بدأت المدن تعلن استقلالها عندما بدأ الضعف يدب في اوصال المملكة، وكان من علامات الاستقلال عن السلطة المركزية هو انقطاع حكام الأقاليم عن كتابة تاريخ السنين بالحوادث حسب التاريخ الرسمي المعترف به في العاصمة اور. وكانت أشنونا اول المدن التي اعلنت انفصالها عن السلطة المركزية، في السنة الثانية من حكم الملك ابي سين. ثم تبعتها مدينة سوسه عاصمة بلاد

عيلام في السنة الثالثه، كما أن أحد الشيوخ الاموريين المدعو نبلانم استقل بمدينة لارسا، ثم تبعة انفصال باقي المدن مثل، لكش، وأوما، ونفر.

فضلاً عن المشاكل التي استعرضناها سابقاً فقد واجهت مملكة اور الثالثة أوضاعاً إقتصادية بالغة السوء عجلت في إنهيارها، وقد أشارت النصوص التاريخية الى تلك المشكلة عن طريق الرسائل المتبادلة بين الملك وحكام الاقاليم التابعه له. وكان من نتائج تلك المشكله، حدوث ارتفاع فاحش في الاسعار، وفقدان بعض المواد الغذائية الاساسية من الاسواق، مثل الشعير والزيت، اذ نقرأ في رسالة بعث بها أحد عمال الملك ابي سين، الذي ارسله لشراء الكميات التي تحتاجها مدينة أور من المؤن، وهو إشبي ايرا حاكم مدينة ايسن.

و يقول، " الى ملكي ابي سين، قل، هكذا يقول إشبي ايرا خادمك، لقد وليتني مسؤولية حملة الى ايسن وكزالوا لشراء الشعير، لقد وصل سعر كور الشعير الى واحد شيقل من الفضة،... لكن اقوام المارتو المعادين قد دخلوا الى بلادك (الى السهل) جلبت الى ايسن الشعير بالجملة...، وبسبب اقوام المارتو فأنني غير قادر على نقل الشعير، إنهم أقوى بكثير مما أقدر عليه، عسى ان يرسل 600 قارب ...، واذا احتجت الى الشعير، فأنني سأجلب الشعير لك يا ملكي، ان العيلاميين قد ضعفوا في المعركة، قمحهم... قد انتهى، فلا تضعف، ولا توافق على ان تكون عبداً لهم...، ان لدي الشعير ما يكفي مدة 15 عاماً لجوع قصرك ومدنه، ياملكي ضعني مسؤولاً عن الاشراف على كل من ايسن ونفر".

إن استقراء هذه الوثيقة التاريخية، يعطينا العديد من المعلومات المهمة عن الواقع السياسي وعن عمق الازمة التي كانت تعيشها مملكة اور في تلك المدة، نلاحظ أن الاقتصاد المتمثل بالشعير كان هو السلاح الفعال في أيدي الحكام القادة آنذاك، مما يعني أن الأزمة الاقتصادية في مدينة اور التي يبدو أن حصاراً كاملاً قد ضرب عليها قد وصلت الى عنق الزجاجة، ولم يبق سوى اشبي ايرا ينقذ مدينة اور من أزمتها، بعد ان سيطرت القبائل الاموية على ابرز المفاصل الحيوية لطرق النقل التي تربط العاصمة اور بالعالم الخارجي.

لكننا من الممكن ان نلاحظ ان اشبي ايرا قد بدأ يستخدم سياسة لي الاذرع مع ملكه ابي سين، حيث تجرأ أن يطلب من الملك أن يجعله حاكماً على مدينة نفر، فضلاً عن كونه حاكما

لمدينة ايسن، مما يعطي صورة واضحة عن حجم الضعف الذي وصلت الية المملكة في ذلك الوقت. كل هذا يحدث والعيلاميين الذين جاءت الضربة القاضية للمملكة على ايديهم يعيشون حالة من الترقب يتحينون الفرصة للأنقضاض على مدينة اور، ولما أصبحوا متيقنين أن مدينة اور لم يعد بأمكانها الدفاع عن نفسها، إحتلوها، وحرقوا معابدها، وابنيتها المقدسة، ونهبوا خيراتها، وأقتادوا الملك أبي سين اسيراً الى مدينة عيلام، وقد جاءت أخبار ذلك الاحتلال من خلال بعض الاعمال الادبية التي نظمت على شكل مراثي، تعبيراً عن الحزن الذي أصابهم لسقوط مدينتهم العظيمة. وبسقوط اور يختفي السومريون عن المشهد السياسي في بلاد الرافدين الى الأبد، لتبقى حضارتهم منهلاً للأمم التي جاءت بعدهم.

لقد اولى الكثير من الباحثين الأزمة الاقتصادية التي حدثت في بلاد الرافدين ذلك الوقت أهمية كبيرة، بوصفها أحدى الاسباب المباشرة لسقوط مملكة اور الثالثة، وقد وقع على مدينة اور الثقل الاعظم في انعكاسات هذه الازمة، اذ تمثل عاصمة المملكة ورمز وجودها ووحدتها آنذاك، ويبدو ان السبب الابرز لتلك المشكلة هو ارتفاع نسبة الملوحة في الأراضي الزراعيه في جنوب بلاد الرافدين بشكل عام، وأراضي العاصمة اور بشكل خاص، مما أضعف من إنتاجية تلك الأراضي، التي لم تعد تغطي حاجة السكان الذين كانت اعدادهم في تزايد مستمر، وقد وجدت إشارات مباشرة الى مشكلة الملوحة في بلاد الرافدين، إذ يبدو أن ثلاثة حالات للملوحة قد حدثت في تاريخ العراق القديم، والتي كان لها اعظم الأثر في تحول الزعامة السياسية في بلاد الرافدين، من سومر الى بلاد بابل، ومن ثم الى المملكة الآشورية في الشمال، اذ لم تظهر هناك مشكلة الملوحة.

وقد حدثت الحالة الأولى حوالي سنة 2400 في دويلة لكش، بسبب موقعها في اسفل أراضي بين النهرين، والري المفرط فضلاً عن الفيضانات تلك العوامل التي خلفت ظروفاً مناسبة لارتفاع مستوى المياه الجوفية، وثمة دلائل عديدة تشير الى ذلك منها العثور على سجلات دون فيها وجود ملوحة في بعض قطع الأراضي التي قام بمسحها موظفو المعابد. كما إن عمليات الإحصاء التي قام بها بعض الباحثين لآثار الحبوب التي تم الحصول عليها، نتيجة للحفريات في جنوب العراق قد بينت أن كميات انتاج الحنطة قد تساوت مع كميات انتاج الشعير في سنة 3500ق. م، وبعد اكثر من ألف عام اي حوالي 2500ق. م هبطت كمية انتاج الحنطة، ذلك

النبات الاقل تحملاً للملوحة الى سدس المحصول في حين وصلت الى 2% من المحصول في مدينة كرسو سنة 2100ق. م، لتترك بعد ذلك زراعة الحنطة وبشكل نهائي في القسم الجنوبي من سهول بلاد الرافدين الفيضية بحلول عام 1700ق. م بشكل تام.